أمن القلوب بالتوحيد

خطبة ألقاها

الشيخ أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

يوم ٢١ المحرم ١٤٣٦ بالمدينة النبوية

[الخطبة الأولى]

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد: فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، ثم يا عباد الله:

إن ربّنا حكيم عليم، خلقنا وأوجدنا من العدم، وربّانا بالنعم، خلقنا في أحسن تقويم، وركّب أعضاءنا في أحسن تنظيم، كلّ عضو في مكانه، يؤدي الفائدة منه، ومحميّ بما يحتاج إلى حمايته، وجعل لنا في أنفسنا آيات، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات:٢١]، وخلق لنا الأرض فسوّاها، ومدّها وبسطها، وبالجبال أرساها، وبالخيرات دحاها، و﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١﴾ [النازعات:٣١]، وجعل فيها ليلاً يغشى ونهارًا يتجلّى، خلق لنا الأرض وما فيها جميعًا وملّكها لنا، وجعل لنا فيها آيات، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَـٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ [الذاريات:٢٠]، وخلق السماء بغير عمد نراها، فعلى سعة أرجائها لا نرى فيها ميلاً، ولا نرى فيها سقوطًا، بل لا نرى فيها فطورًا، وخلق الكواكب السيّارة، كبيرها وصغيرها، تسير بانتظام في ليلها ونهارها.

خلق لنا كل هذا -يا عباد الله- لنتعرّف عليه ونعبده ونوحّده ﷻ، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

فقلوبنا -يا عباد الله- إنما خلقها ربّنا لتوحّد الله وتعبد الله، ولذا -يا عباد الله- كان في القلوب شَعَثٌ لا يَلُمُّه إلا التوحيد، وكان في القلوب خوفٌ لا يُؤَمِّنُه إلا التوحيد، وكان في القلوب قَلَق لا يُسَكِّنُه إلا التوحيد، وكانت في القلوب حيرة لا يَدفَعُها إلا التوحيد.

فمن أخطأ التوحيد أو شيئًا منه وقع في كل هذا يا عباد الله، ومن حقق التوحيد كان قلبه آمنًا، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام:٨٢]، الذين وحّدوا الله ﷻ، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك أبدًا، أولئك العباد لهم الأمن في الدنيا، ولهم الأمن في الآخرة، وهم مهتدون، فالقلوب -يا عباد الله- لا أمن لها ولا طمأنينة لها إلا بتوحيد رب العالمين.

ومِن أمن القلوب بالتوحيد يا عباد الله: أنّ قلب الموحّد متوكّل على الله ﷻ، مفوّض أمره إلى الله ﷻ، ثقةً بربّه ﷻ، مع بذل الأسباب المشروعة، فقلب الموحّد يوقن إيقانًا تامًّا أن النفع كلّه بيد الله، وأن الضُّرّ كلّه بيد الله، وأن الأمة لو اجتمعت على أن تنفع العبد بشيء لم تنفعه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن تضرّه بشيء لم تضرّه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

لو أن الأمة -جنّها وإنسها، أولها وآخرها، كبيرها وصغيرها، قويّها وضعيفها، سلطانها ومرؤوسها- اجتمعت على أن تنفع العبد بشيء لم تنفعه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن تضرّ العبد بشيء لم تضرّه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، فقلب المؤمن متوكّل على الله ﷻ مطمئنّ بربّه ﷻ.

ومن أمن القلوب بالتوحيد يا عباد الله: أن قلب المؤمن مُمتلئ حُبًّا لله ﷻ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة:١٦٥]، ويقول النبي ﷺ: «لأدفعنّ هذه الراية إلى رجل يحبّ الله ورسوله»، فقلب المؤمن مليء بحبّه لله ﷻ، وإذا امتلأ القلب بحبّ الله تيسّر له كل خير، وحبّ الله -يا عباد الله- يقود المؤمن إلى أن يسير إلى ربّه سيرًا حسنًا، فإن المحبة تحرّك القلوب إلى الله ﷻ.

ومن أمن القلوب بالتوحيد يا عباد الله: أن قلب المؤمن يمتلئ رجاءً لله ﷻ، ورجاءً لماء عند الله ﷻ، ورجاءً لما أعدّه الله ﷻ لعباده الصالحين، فهو يرجو الله واليوم الآخر ويرجو ما عند الله ﷻ، ويعلم أن الأمر كله بيد الله، وأن الله ﷻ كريم محسن سميع مجيب، فهو يرجو الله ﷻ.

والمؤمن -يا عباد الله- إذا رجا الله ﷻ نشط في عبادة الله ﷻ، لأنه يعلم أنّ لما عند الله ﷻ مفاتيح، وأن مفتاح ما عند الله هو طاعة الله ﷻ، فما استُجلب ما عند الله من خير بمثل طاعته ﷻ.

ومن أمن القلوب بالتوحيد يا عباد الله: أن قلب المؤمن يمتلئ خوفًا من الله ﷻ، فالمؤمن يخاف الله ﷻ، ولا يخاف ما يخوّفه الناس به من دون الله ﷻ، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

المؤمن -يا عباد الله- يخاف الله ﷻ، وإذا امتلأ قلبه خوفًا من الله ﷻ فإنه يمتنع عن معصية الله ﷻ، لأنه كلما تزخرفت له المعصية وتذكّر لذّتها، تذكّر ما عند الله، وما في عقاب الله من ألم، فيزدجر عن تلك المعصية، وينزجر عنها، ويبتعد عنها.

ولذا -يا عباد الله- يسمي العلماء هذه الثلاثة -المحبة والخوف والرجاء- محرّكات القلوب إلى الله ﷻ، فإن المحبة تدفع المؤمن إلى أن ينشط في سيره إلى الله ﷻ، وإن الرجاء يدعوه إلى أن يُكثر من الطاعة، وإن الخوف يمنعه من أن ينحرف عن الصراط المستقيم يمينًا أو شمالاً.

ومن أمن القلوب بالتوحيد يا عباد الله: أن قلب المؤمن يمتلئ شكرًا لله ﷻ، الذي أنعم عليه بجميع النعم، وهو يتقلّب في نعمه ليلاً ونهارًا، فيبتغي عند الله الرزق، ويعبد ربّه ويشكر لربّه، لأنه يعلم أن الله هو الذي أنعم عليه، وأنه إلى ربه راجع، كما أمره الله ﷻ، ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧].

قلب المؤمن -يا عباد الله- يمتلئ شكرًا لله ﷻ، وإذا امتلأ شكرًا لله ﷻ شَكَرَ مَن أحسن إليه من عباد الله، لأنه يعلم -كما أخبره النبي ﷺ- أن «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، فيشكر الزوج زوجته، وتشكر الزوجة زوجها، ويشكر الجار جاره، ويشكر الراعي الرعية، وتشكر الرعية الراعي، وكل هذا من شكرهم لله ﷻ، فإنّ شكر الناس من شكر الله، لأن كل أمر إنما هو من نعم الله، وأن الناس إنما هم وسائط، يوصلون إلى الناس بعض نعم الله ﷻ، فمَن شكرهم كان شاكرًا لله ﷻ.

وقلب المؤمن الموحّد -يا عباد الله- يمتلئ صبرًا، فيصبر على طاعة الله وإن غوى أكثر الناس، ويصبر عن معصية الله وإن عصى أكثر الناس، ويصبر على أقدار الله وإن تسخّط أكثر الناس، يمتلئ شكرًا وصبرًا، وهذا من أعظم الخيرات للمؤمن، يقول النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له».

ومن أمن القلوب بالتوحيد يا عباد الله: أن قلب المؤمن عزيز، لأنه يعلم أن الأمر كله لله، وأن الأمر يرجع إلى الله ﷻ، فلا يذلّ إلا لله ﷻ، وكلّما ازداد ذُلاً لله كلّما ازداد عزًّا، فلا يدعو أحدًا من دون الله، لا يدعو ملكًا مقرّبًا، ولا نبيًّا مرسلاً، ولا وليًّا صالحًا، وإنما يدعو الله عزو جل، لأنه يعلم ويعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله قريب يجيب دعوة الداعِ إذا دعاه، وأن الدعاء عبادة لا يجوز صرفها إلا لله ﷻ، فلا يدعو إلا الله ﷻ، ولا يستغيث إلا بالله ﷻ، فيعيش عزيزًا، وكلّما كان ذليلاً لله كلّما عاش في الدنيا عزيزًا.

فالحمد لله -عباد الله- أن أكرمنا بهذا الدين، وجعلنا من الموحّدين.

وإن الواجب علينا -يا عباد الله- أن نعرف للتوحيد قدره، وأن نسعى في تحقيقه، وألا نغفل عن ذلك أبدًا، وأن يذكّر بعضنا بعضًا بهذا الأمر العظيم والفرض الكريم دائمًا وأبدًا، فقد قضى النبي ﷺ حياته بعد بعثته -منذ أن بُعث إلى أن مات ﷺ- مُعظّمًا للتوحيد، مُحقّقًا للتوحيد، داعيًا إلى التوحيد، حريصًا على التوحيد، مُحذّرًا من كل ما يَنقُضه أو كل ما يُنقِصه، فعلينا -عباد الله- أن نسير على سنة النبي ﷺ، مجتهدين في هذا الأمر، داعين إليه، معلّمين أبناءنا التوحيد من الصغر، ومحذّرينهم من الشرك، وناشرين هذا الأمر بين أظهر المسلمين، فإنه لا عزة ولا خير ولا قوة لهذه الأمة إلا بتمسكها بحبل الله المتين وتحقيق توحيد رب العالمين.

أسأل الله ﷻ أن يثبّتنا على التوحيد والهدى إلى أن نلقاه.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد فيا عباد الله:

إن من أمن القلوب بالتوحيد: أن قلب المؤمن ناصح دائمًا وأبدًا، فقلوب أهل السنة والتوحيد ناصحة لعباد الله، وقلوب أهل الأهواء غاشّة لعباد الله، يقول النبي ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامّتهم».

«الدين النصيحة»: فالدين كله -يا عباد الله- في النصيحة، فالمؤمن ناصح لله ﷻ، بأن يحقّق التوحيد، ويعبد الله ﷻ وحده، ولا يعلّق قلبه إلا بربّه ﷻ، وناصح لكتاب الله، بأن يكثر من قراءته، ويكثر من تلاوته، فلا يملّ منه مهما تقلّبت الظروف، ومهما كانت أحواله، دائمًا يقرأ في كتاب الله، يقيم حروفه، ويعمل بأحكامه، يحرص على تلاوته، وعلى الخشوع عند تلاوته، يؤديه على الوجه الذي يحبه الله ﷻ.

الموحّد -يا عباد الله- ناصح لرسول الله ﷺ، بأن يحقق اتّباعه، فيعلم أنه رسول من عند الله ﷻ، واجب عليه أن يطيعه، وواجب عليه أن يتّبعه، وأنه لا خير له إلا في اتّباع محمد بن عبد الله ﷺ.

فلا يُحدث في دين الله ما لم يأت به رسول الله ﷺ مهما دعا الهوى، ومهما زخرف المزخرفون، يلزم سنة رسول الله ﷺ، إن دعاه أحد إلى دعاء أو دعاه أحد إلى عبادة قال: هل ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؟ فإن ثبت عنه كان له من المتّبعين، وإن لم يثبت عنه قال: إني لا أعبد الله إلا بما جاء به رسول الله ﷺ.

المؤمن الموحّد -يا عباد الله- ناصح لولاة أمر المسلمين، ناصح لهم في قلبه، فلا يحمل لهم غشًّا، ولا يحمل عليهم حقدًا، وإنما يدعو لهم، ويستغفر لهم، ويسأل الله لهم الهداية، لأنه يعلم أنه برشدهم ترشد الأمة، وأنهم إذا حقّقوا ما يريد الله منهم فإن الأمة تكون بخير، وينصحهم في سرّ من غير علانية، ومن غير فضيحة، محافظةً على مكانتهم في قلوب العامّة، لا يترك نصحهم، ولا يفضحهم أمام الناس، وإنما يقوم بالنصح كما أمره بذلك النبي ﷺ.

الموحّد -يا عباد الله- يكون ناصحًا لعامّة المسلمين، فلا يغشّهم في عمل، ولا يغشّهم في تجارة، ولا يغشّهم في صنعة، ويأمرهم بالمعروف الذي يعلمه، وينهاهم عن المنكر الذي يعلمه، وبهذا -يا عباد الله- يتحقّق الأمن للعبد في قلبه، ويتحقّق الأمن لعباد الله من عباد الله.

فالحمد لله ثم الحمد لله الذي جعلنا مسلمين، وأكرمنا باتّباع سيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، وعلّمنا التوحيد، وجعلنا في بلاد يُعلَّم فيها التوحيد، وتُظهَر شعائره، ونسأل الله ﷻ أن يكرمنا بتحقيق التوحيد والثبات عليه إلى أن نلقاه ﷻ.

ثم اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن الله أمرنا بأمر شريف، بدأ فيه بنفسه، ثم ثنّى بملائكته، فقال -عز من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقال ﷺ: «من صلّى عليّ صلاة واحدة صلّى الله عليه بها عشرًا».

فاللهمّ صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

اللهمّ إنّا نشهد أنّه قد بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وجاهد في الله حق الجهاد، فابعثه اللهمّ المقام المحمود الذي وعدته، وارض اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارض عنّا معهم بمنّك وكرمك يا أكرمك الأكرمين.

اللهمّ اجعلنا ممّن رضيت عنهم يا رب العالمين، اللهمّ اجعلنا ممّن رضيت عنهم يا رب العالمين، اللهمّ اجعلنا ممّن رضيت عنهم يا رب العالمين.

اللهمّ إنّا نعوذ بك من شرّ الفتن، اللهمّ إنّا نعوذ بك من شرّ الفتن، اللهمّ إنّا نعوذ بك من شرّ الفتن.

اللهمّ اهدنا صراطك المستقيم وثبّتنا عليه يا رب العالمين، اللهمّ اهدنا صراط المستقيم وثبّتنا عليه يا رب العالمين، اللهمّ اهدنا صراط المستقيم وثبّتنا عليه يا رب العالمين.

اللهمّ إنّا نعوذ بك من الشهوات المُزِلّة والفتن المُضِلّة يا رب العالمين.

اللهمّ اجعلنا من عبادك الموحّدين، اللهمّ اجعلنا من عبادك الموحّدين، اللهمّ اجعلنا من عبادك الموحّدين.

اللهمّ إنّا ضعفاء فقَوِّنا بطاعتك يا رب العالمين.

اللهمّ يا ربّنا اجمع قلوبنا على محبّتك يا رب العالمين، اللهمّ اجمع قلوبنا على محبّتك يا رب العالمين، اللهمّ اجمع قلوبنا على محبّتك يا رب العالمين.

إلهنا، يا قوي يا عزيز، قد أحطت بكل شيء علمًا، اللهمّ فإنّ لنا إخوانًا فيك يا ربّنا قد مسّهم الضرّاء والبلوى، اللهمّ ففرّج عنهم يا رب العالمين، اللهمّ فرّج عنهم يا رب العالمين، اللهمّ فرّج عنهم يا رب العالمين، اللهمّ فرّج عن إخواننا في كل مكان يا رب العالمين، اللهمّ فرّج عن إخواننا في كل مكان يا رب العالمين، اللهمّ فرّج عن إخواننا في كل مكان يا رب العالمين.

اللهمّ إنا عباد من عبادك، قد اجتمعنا في بيت من بيوتك، نؤدي فريضة من فرائضك، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، اللهمّ فأمّنّا ممّا نخاف وأعطنا ما نرجو يا رب العالمين.

اللهمّ إنك أعلم بقلوبنا، اللهمّ إنك أعلم بقلوبنا، اللهمّ إنك أعلم بقلوبنا وأعلم بأحوالنا يا رب العالمين، فمن علمته منّا على خير فثبّته يا رب العالمين، ومن علمته على شيء لا تحبّه اللهمّ فتب عليه يا رب العالمين، اللهمّ فتب عليه يا رب العالمين، اللهمّ فتب عليه يا رب العالمين.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

عباد الله! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠].

فاذكروا الله العظيم يذكركم، واشكروه على نِعمه يزدكم، ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت:٤٥].